القيم الأخلاقية في قصيدة (البدو) لمحمد عبد الباري
(دراسة تحليلية)

إعداد

د. انتصار محمد أحمد آدم

أستاذ مساعد - قسم اللغة العربية وآدابها

كلية اللغات والعلوم الإنسانية - جامعة القصيم

البريد الإلكتروني: Entesaradm2@gmail.com

الملخص:

محمد عبد الباري شاعر سوداني ولد عام 1985م،عاش بالمملكة العربية السعودية ،وحصل على شهادة البكالوريوس في اللغة العربية وآدابها بالرياض، ثم نال درجة الماجستير من الجامعة الأردنية بعمّان، من خلال أطروحة تناولت قضية الشعر في تراث فلاسفة الإسلام ومناطقته وعلماء الكلام والأصول فيه. استطاع أن ينتزع اعترافاً مبكراً بشاعريته، إذ كانت قصائده تدرس في عدة من الجامعات السعودية، وكان حينئذ طالباً في الجامعة. نالت قصائده إعجاب القراء في الساحة الثقافية العربية وحاز العديد من الجوائز في الشعر العربي، لديه عدد من الأمسيات الشعرية واللقاءات التلفزيونية والمقابلات الصحفية. شعره يحتشد بالإحالات التاريخية والثقافية والفلسفية، ومن هنا جاءت هذه الدراسة كاشفة عن هذه الجوانب في شعره من خلال دراسة القيم الأخلاقية في قصيدة البدو المضمنة في ديوانه مرثية النار الأولى الصادر عام 2013 م.

الكلمات المفتاحية: البدو، القيم، الأخلاق، المرجعية، الصحراء

Ethical Values in the Poem (Al-Badu) by Mohammed Abdul-Bari (An Analytical Study)

Dr. Intisar Mohammed Ahmed Adam

Assistant Professor - Department of Arabic Language and Literature - College of Languages and Human Sciences - Qassim University

Email: ***Entesaradm2@gmail.com***

Abstract :

Mohammed Abdul-Bari is a Sudanese poet born in 1985. He lived in Saudi Arabia and obtained a Bachelor's degree in Arabic Language and Literature in Riyadh. He then received a Master's degree from the University of Jordan in Amman, through a thesis that dealt with the issue of poetry in the heritage of Islamic philosophers, its logic, and the scholars of speech and origins in it. He was able to gain early recognition of his poetry, as his poems were taught in several Saudi universities, when he was a student at the university. His poems won the admiration of readers in the Arab cultural arena and won many awards in Arab poetry. He has a number of poetry evenings, television interviews and press interviews. His poetry is full of historical, cultural and philosophical references, and hence this study came as revealing these aspects in his poetry through the study of ethical values in the Bedouin poem included in his first Fire Elegy, published in 2013

Keywords: *Bedouins-value- morals- Reference - desert*

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ،والصلاة والسلام على أشرف خلق اله أجمعين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

شكلت القيم بمختلف أبعادها (الروحي ،والعقلي ،والجمالي ،والوجداني، والاجتماعي، والأخلاقي)مرتكزا أساسياً في بناء المجتمعات فبدونها لا تقوم حضارة ولا ينشأ عمران ،وهي مرتبطة بشكل كبير بالدين والفلسفة ، وقد عبر الناس في مختلف الثقافات عن قيمهم ومبادئهم بوسائل متعددة ؛من أهمها اللغة مكتوبة ومنطوقة وكان للشعر باعتباره فناً قولياً راقياً القدح المعلى في هذا الشأن ؛ فاحتفى الشعراء (أمراء البيان) بقيم مجتمعاتهم .

والعرب كأمة عريقة ذات إرث حضاري قديم احتفت بقيمها خاصة ما يتعلق منها بجانب الخلق ؛وسجلت ذلك شعراً ونثراً ، وما وصلنا من قصائد جاهلية شاهد على ذلك ، ومعلوم أن الشعر ديوان العرب وسفر حكمتها ومن أهم القصائد الجاهلية التي حفظت لنا صورة واضحة عن قيم العرب (المعلقات) ؛ هذه القصائد الطوال التي تغنى بها الشاعر العربي ولقيت من الحفاوة ما جعلها خالدة إلى يوم الناس هذا .

وتوالى احتفاء العرب بهذه الأخلاق عبر العصور في أشعارهم بمختلف أغراضها فخراً وحماسة وهجاء بل غزلا ورثاءً .ورغم مرور الزمان وتقلب الدهر ظلت هذه القيم راسخة لا تبارح مكانها في الوجدان العربي إلى أن وصلنا إلى العصر الحديث .

ويبرز اسم الشاعر السوداني المعاصر محمد عبد الباري كأحد الشعراء الذين تناولوا القيم الأخلاقية للثقافة العربية من منظور مختلف وغاصوا في تفاصيلها فبدت متجلية ومتألقة ، و شعره مشحون بالرموز والإشارات الدالة على ذلك ، وقد اخترت من قصائده قصيدة (البدو) فقد بدا لي أنها تمثل هذا المعنى أفضل تمثيل وتظهر رؤيته العميقة للجانب الأخلاقي في حياة العرب وربما الإنسانية .

وقد اتبعت في هذا البحث المنهج التحليلي ، ويتكون البحث من مقدمة وثلاثة مباحث ، المبحث الأول يتكون من أربعة مطالب والمبحث الثاني يحوي خمسة مطالب والثالث يحتوي على ثلاثة مطالب ، وذيلت البحث بخاتمة وقائمة للمصادر والمراجع .

المبحث الأول : مفهوم القيم لغةً واصطلاحا

القيم لغةً : وردت كلمة (قيم) في لسان العرب (مادة قوم) بمعنى : الاستقامة : يقال قام الشيء بمعنى استقام وثبت ومنه (دين قيم) أي مستقيم لا عوج فيه ،ووردت بمعنى : الثمن ؛و قيمة الشيء ثمنه ، وما يقوم مقامه من المال ، ووردت بمعنى التقدير : قوم الشيء أي قدّره وحدد قيمته ، وتأتي بمعنى السيادة والتدبير : قيّم الأمر أي المتولي له والمسؤول عنه . (1)

القيم اصطلاحا : لا يوجد تعريف اصطلاحي محدد لكلمة قيم في لسان العرب

اختلف المفكرون في تعريف مصطلح القيمة إلى مجموعات تبعا للزاوية التي ينظر من خلالها كل منهم وقد صنفها العالم الألماني سبرانجر Spranger,E (1928)معيار (محتوى موضوع القيمة أو مجالها والنشاط المرتبط بها) إلى ستة أنواع هي القيم النظرية أو العقلانية مثل سرعة البديهة ، والاقتصادية مثل التنافس ، والسياسية مثل النفوذ، والاجتماعية مثل الإيثار والدينية مثل الإيمان ، والجمالية مثل الحب ، وهكذا على حسب المعيار يختلف تعريف القيم فمن المعايير معيار (أهي غاية أم وسيلة) ومعيار (العمومية والخصوصية) و(معيار الديمومة والانقطاع)وهناك من صنفها حسب درجة (إلزاميتها للأفراد والمجتمعات) .(2).

وقد ارتبطت القيم بالأخلاق على مر الزمان حتى لكأنهما يدلان على معنى واحد؛لذلك سأحاول الكشف عن المعنى الدقيق لمفهوم كل منهما.

الأخلاق لغةً:

جاءت مادة (خلق) في لسان العرب بمعنى :الخلق :المروءة، وفلان خليق لكذا أي جدير به. وأنت خليق بذلك أي جدير. ويقال: إنه لخليق أي حري؛

يقال ذلك للشيء الذي قد قرب أن يقع وصح عند من سمع بوقوعه كونه وتحقيقه .ويقال:أَخْلِقْ به، وأَجْدِرْ بِهِ، وأَعْسِ بِهِ، وأَحْرِ بِهِ، وأَقْمِنْ بِهِ، وأَحْجِ بِهِ؛ كلُّ ذَلِكَ مَعْنَاهُ وَاحِدٌ.

وَاشْتِقَاقُ خَلِيق وَمَا أَخْلَقه مِنَ الخَلاقة، وَهِيَ التَّمْرينُ؛ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَقُولَ لِلَّذِي قَدْ أَلِفَ شَيْئًا صَارَ ذَلِكَ لَهُ خُلُقاً أَيْ مرَنَ عَلَيْهِ، وَمِنْ ذَلِكَ الخُلُق الحسَن .(3)

والأخلاق جمع خلق وكما نرى هي ما عليه الإنسان من صفات حسنة أو قبيحة أي أن فيها معنى الثبات والديمومة .

الأخلاق اصطلاحاً:

يقول الإمام أبو حامد الغزالي:

أمهات الأخلاق وأصولها أربعة الحكمة والشجاعة والعفة وَالْعَدْلُ وَنَعْنِي بِالْحِكْمَةِ حَالَةً لِلنَّفْسِ بِهَا يُدْرَكُ الصَّوَابُ من الخطأ في جميع الأفعال الِاخْتِيَارِيَّةِ(4)

إن هذه الأسس الجديدة - لكل من الأخلاق والقانون - قامت على مبدأ النفعية - فائدة الفعل للفرد، وفائدة العادة للجماعة، وفائدة القانون للشعب وفائدة الاتفاقات الدولية للجنس البشري. وذهب بنثام إلى أن كل النظم تسعى لتحقيق المسرة وإبعاد الألم.(5)

وتشير الأخلاقية إلى نسبية الخير في الأفراد كما ينعكس في سلوكهم ومعتقداتهم، ولقد ميزكولبرجKohlberh بين ثلاثة مظاهر للأخلاقية: أولها مظهر سلوكي ينعكس في قدرة الفرد على مقاومة الإغراء وثانيها مظهر انفعالي وهو يتعلق بما ينتاب الفرد من مشاعر الذنب والقلق عند انتهاكه للقواعد الخلقية أو الإتيان بسلوك غير خلقي حيث ترتبط زيادة الأخلاقية بزيادة مشاعر الذنب، والمظهر الثالث هو المظهر المعرفي ويتعلق بتقدير الأفراد للأخلاقيات في السلوك المعطى من خلال المعايير الشخصية للخير والشر التي يحكم بها على سلوك الفرد.(6)

المبحث الثاني:القيم الأخلاقية في القصيدة

القيم الأخلاقية التي وردت في القصيدة هي:

1-قيمة الاعتزاز بالذات:

يقول : (لاحدود لاعتزاز البدوي بنقاء نسبه الذي يحرص عليه ،ويعنى به . وفي نظر البدوي أنه وحده الأصيل وتتجذر فيه بعمق الإيمان القرابة الدموية التي يجب أن يلتزم بها .ومن هنا يفسر الزهو بنقاء النسب)(7)

من أقاصي اللظى يجيئون سمراً

بجباهٍ

على الشموسِ مطلّة

في الدمِ العنفوانُ يصهلُ

هذا

وجههم ينزفُ الشموخَ /الجبلّة

كلما احمرّ في القبيلةِ

خطبٌ

أيقظَ الموتُ في العمائمِ ظلّه(8)

أبرز الشاعر قيمة الاعتزاز بالذات في سياق بطاقته التعريفية للبدو ؛فبدت هذه القيمة الخلقية كجزء أصيلٍ من هويتهم.

يقول : من أقاصي اللظى يجيئون سمراً ، فكلمة أقاصي دالةٌ على استفراغ الجهد؛ ففيها معنى العزيمة والإصرار وهذا لا يتأتّى إلا لقوي الذات ذو الهمّة العاليةِ.

أما كلمة لظى فتدل على اللّهب الخالص المتوهج(9)، فالشاعر اختار من أسماء النار لظى ليعبّر عن نشاطهم وحركتهم الدؤوبة وحياتهم الشّاقة وبيئتهم الجافّة التي امتزجوا بها امتزاجاً شكّل وجدانهم، وأخذوا منها أخلاقهم وسِماتهم .

والبدو في منظور الشاعر سُمرٌ لكنّ جِباههم على الشموسِ مطلة ،فكأنّ طِباقاً بين السمرة والوضاءة نلمحه من خلال الأسطر، فكأنه يقول لنا : أن سمرتهم هي رمزٌ لعزّتهم وذلك حين ربط بين الجباه والشموس ؛ فالجبهة هي أعلى الوجه مما يلي الرأس ويرمز بها إلى العزّة والكرامة في الإرث اللغوي العربي.

يقول تعالى:{يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ} (10)

يقول القرطبي في تفسيره (والْكَيُّ فِي الْوَجْهِ أَشْهَرُ وَأَشْنَعُ...)(11)

وأما الشمسُ فيرمز بها للشموخ والوضوح ،والشَموس(بفتح الشين) من الدواب النفور ، ورجلٌ شموس صعب الخلق، قال الأخطل:

شمس العدواة حتّى يُستقادُ لهم وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قدروا(12)

وهذا الخلق ألصق بالبدو وأظهر فيهم.

أما كلمة مطلّة فتشير إلى تعودهم على حرارة الشمس ،فهم لا يهابونها .

وفي قوله: **في الدم العنفوان يصهل هذا** إشارات؛ الأولى أن هذه الصفات متأصلة فيهم ، ممتزجة بدمائهم. والإشارة الثانية في كلمة العنفوان إذ تشير إلى حيوية البدو وحبهم لحياتهم التي تعج
بالشموخ، والإشارة الثالثة في كلمة يصهل ،والتي تحيلنا إلى الخيل في رمزيةٍ سلسة؛ فلا حيوان يليق بالشموخ كالخيل.
وأجاد الشاعر في إيصال المعنى المراد حين جعل شموخهم جبلّةً ،وكأن كلّ صفاتهم شموخٌ.
وعبّر الشاعر عن الصعاب التي يجابهها البدو بقوة وشجاعة بقول: **احمرّ خطبٌ** ، ولا يخفى علينا دلالة اللون الأحمر وارتباطه بحياتهم التي يسودها الخطر، وقد عبّر عنه بالخطب.

والاستعارة في قوله : أيقظ الموتُ في العمائم ظلّه، تبدو موحية ومعبّرة، فكأن الموتَ ملازمٌ لهم ،بين خيامهم، ويسير خفيةً في ركابهم كالظلِّ . أما العمائم ، ففيها دلالة العزِّ والسيادة. (13)

2-قيمة الخبرة والدراية:

لا يتيهونَ.. والدروبُ مجازٌ

في مجاز..

مضلّةٌ في مضلّة

كلما -عن مدارِه - تاهَ نجمٌ

جاء يرجو خطاهمُ أن تدلّه!! (14)

هنا عبّر الشاعر محمد عبد الباري مباشرةً عن قيمة أخرى ملازمة للبدو، الذين اكتسبوا من الصحراء صفاتها وأكسبوها معناها، وهي قيمة الخبرة والدراية ،فالصحراء دارهم التي يعرفون خباياها ، لا يهابونها وهي حارقةُ النهار مخوفة اللّيالي، كثيرة الخطوب ، واسعة الدروبِ؛ لذا قال: **والدروب مجازٌ في مجازٍ مضلّةٌ في مضلة.**

واستخدم شاعرنا أداة الشرط كلما؛ ليعبّر عن خبرة البدو بمتاهات الصحراء وطرقها، في أرضها وسمائها ،فالنجومُ التائهة تتبع خطاهم لتستدلّ إلى مواقعها وهي في سمائها وهم في أرضهم التي يعتزّون بها ويرونها سماءً تضارع مواطن النجوم.

1- قيمة العفّة

وإذا باح هودجٌ باسم (وضحى)

لا ترى في الركابِ

إلا مولّه

شهقة.. شهقة.. يُدارونَ شيئاً

من حرامٍ

جمرُ الضلوعِ أحلّه

ما ترى يصنعون لو أن(وضحى)

منحتهم - خلف البراقع –

طلّة (15)

العفة من أسمى الأخلاق الإنسانية ،وفيها معنى الانضباط ،والترفّع عن الدنايا ،وقد احتفى العرب بهذا الخلق النبيل ،وضجّت به أشعارهم منذ القدم.

وفي هذا يمكننا أن نورد أبياتاً لشعراء جاهليين، يقول عروة بن الورد:

وإنْ جارتي ألوت رياحٌ ببيتها، تغافلت، حتّى يستر البيت جانبُه(16)

ويقول عنترة بن شدّاد في ذات المعنى:

وأغضُّ طرفي ما بدت لي جارتي حتّى يواري جارتي مأواها

إنّي امرؤٌ سمح الخليقة ماجدٌ لا أتبعُ النفس اللجوج هواها(17)

وهنا يعيد الشاعر العزف على ذات القيثارة مستلهما من الماضي، قائلاً: **إذا باح هودجٌ باسم وضحى لا ترى في الركاب إلّا مولّه**، ففي استخدامه إذا وهي للمستقبل تفيد الشرط، دلالة على ندرة حدوث الفعل وهو البوح، وقد استخدم الشاعر الاستعارة في هذه الجملة، فأكسبت المعنى حيوية وألقاً، فحتى الهودج لا يجرؤ على البوح باسم (وضحى)، فإذا فعل فلن تجد في الرِّكاب سوى المحبينَ المولهين، والوله هو الحزن الشديد لفقد المحبوب الذي قد يؤدي إلى ذهاب العقل.(18)

وفي قوله: **شهقة.. شهقة**، تعبيرٌ عن معاناةٍ تعتملُ في صدورِ المحبين، وفي قوله: **يدارون شيئا من حرامٍ جمر الضلوع أحلّه**، ما يدل على ترفعهم عن إبداء مشاعرهم، التي قد تظهر ضعفهم وتُشين سمعتهم وهذا قمّة التعفّف.

وهنا يبدع الشاعر مرةً أخرى عندما يقول: **ما تُرى يصنعون لو أنّ (وضحى) منحتهم خلف -البراقع- طلّة**، فهنا يشير إلى صورةٍ نمطية في الشعر العربي، ألا وهي تمنّع المحبوبة؛ فممّا تُمدح به المرأة، البخلُ بالوِصال والحياء.

يقول قيس ابن الخطيم:

تَذَكَّرَ لَيلى حُسنَها وَصَفاءَها ... وَبانَت فَأَمسى ما يَنالُ لِقاءَها (19)

فالمرأة عند شعراء العرب يعزّ لِقاؤها، ووصلها.

وفي مقطع آخر في القصيدة يشير الشاعر إلى قيمة العفّة، بطريقة فيها من الطرافة ما فيها.

فهو يقول:

منذُ كانوا

وفسقهم يتوضا!

يا لهذي

الطهارةِ المنحلّة!(20)

ففسقهم يتوضأ ، وطهارتهم منحلّة، يريد أن يصف البدو بالطهارة والنقاء، في مقابلةٍ بينهم وبين غيرهم من النّاس، وذلك نلمحه من نسبة الفسق لهم، وكذلك الطهارة وكأنّه يقول أنّ فساد البدو مقارنةً بفساد دونهم من النّاس طهارة.

4-قيمة الكرم:

تركوا بالغناءِ

في كلِ شبرٍ

عبروا منه غيمةً مُنهلّة

كلما حاصرَ الهجيرُ المطايا

أطفأته الحناجرُ

المبتلّة(21)

في الصحراء الحارقة تعظمُ قيمة المطر، ونرى ذلك جلياً في شعر العرب، إلى يوم النّاس هذا، وليس كالبدو من يقدر قيمته، ومن ذلك تشبيههم للعطاء بالمطر، والكريمِ بالبحر والغيمة والسحابة، يقولُ الفرزدق في المدح:

كلتا يديه غياث عمّ نفعهما ، يستوكفانِ ، ولا يعرُوهما عدمُ(22)

فالفرزدق هنا يمدح زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، بأنه كريم شديد الكرم، فكلتا يديه عونٌ يجري من بينهما الماء

وإذا عدنا لقول الشاعر، نجد أنه عبّر عن ذلك عندما وصفهم بالكرم بطريقة مختلفة، فقد آنسوا وحشة الصحراءِ بالغناء، فعطاؤهم أغرق الصحراء، فما ترك منها شبراً إلّا ووصلته غيمات أصواتهم الندية.

ويقول: يُسهرونَ الخيامَ .. علّ غريبا

يطرقُ الحيَ آخر الليلِ

علّه

نارهمْ

تستعيذُ من شرِ ليلٍ

ما به عابرونَ إلا الأهلّة

كلما وسوسَ الطريقُ

بضيفٍ

بين أضلاعهم تُرحبُ (دلّة)

القرى: جفنةٌ تسيلُ احتفاءً

ووجوهٌ من الندى

مخضلّة

واعتذارٌ.. .

و الأسخياءُ النشامى

من رأوا أكثرَ السخاءِ أقلّه(23)

في هذا المقطع من القصيدة تبدو قيمة الكرم واضحة، أبرزها الشاعر من خلال الكلمات والصور. فهم : **ي ُسهرون الخيام** أي أنّ خيامهم تشاركهم سخاءهم، ويتمنون لو أنّ غريباً يطرق بابهم، بل إنهم **يستعيذون من شرّ ليلٍ ما به عابرون** ،فكأنهم يستبشرون خيراً بالضيف والكرم عند العرب خُلقٌ يعتزون به أيما اعتزاز، ويبغضون البخل ويذمونه ويهجون البخيل، ويدافعون عن الكرم والكرماء، يقول الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد:

أرى قَبرَ نَحّامٍ بَخيلٍ بمالِهِ ... كَقَبرِ غَويٍّ في البَطَالَةِ مُفسِدِ(24)

فالبخيلُ الشحيح قبره يشبه قبر المسرف الذي لا يدرك قيمة المال، وهنا معنى عميق ينظر للحياة على أنها فانية لذا فالكرم أولى ففيه كسب للحمد وسد لحاجة النفس .

وعندما يقول: **كلما وسوسَ الطريقُ بضيفٍ بين أضلاعهم تُرحبُ (دلّة)** نلمح صورة مبتكرة، كثيفة المعنى ؛ محملة بالدلالات ؛ فكلمة وسوس فيها ترقب للضيف وانتظار لقدومه وتهيؤ لإكرامه ؛ فالوسوسة الصوت الناعم الخافت ، فهم يعدون للضيف قهوته قبل وصوله ، وهنا نرى صورة طريفة تفوق فيها الشاعر على نفسه فاختصر كل ما قيل من معان الكرم؛ فالدلّة بين أضلاعهم ترحب بضيفهم ، هي في مكان القلب بين الضلوع .

الصورة بقوله : **القرى: جفنةٌ تسيلُ احتفاء ووجوه من الندى مخضلّة ويحضرني هنا** قول الشاعر :

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب

وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

ثم يقول الشاعر مختتماً لوحة الكرم الزاهية : **واعتذارٌ.. و الأسخياءُ النشامى من رأوا أكثرَ السخاءِ أقلّه**

الشاعر هنا يعبّر عن أصالة الكرم في نفوس البدو، ويؤكده، فبعد كل هذا الترقب لوصول ضيفٍ، وسؤال الطرقات عنه، وإظهار الفرح بإكرامه، يعتذرون له، وما ذلك إلا لسخاء نفوسهم، التي تقدم كل ما لديها، دون منٍّ أو أذى ولا ترى في كثر العطاء إلا جهد المقل.

5-قيمة الحرية:

ولدوا في طفولةِ الأرضِ

قِلة

ثم سالوا.. كما تسيلُ الأهلة

منذُ دهر ينِ..

والقوافلُ حُبلى

باسمهمْ..

والسُرى يُطاردُ ظلّه

حملوا من سُلالةِ البرقِ معنى

واستباحوا به القفارَ

المُضِلة

بينهمْ والرمال ألفُ(جناسٍ)

أغفلته (البلاغةُ) المختلّة(25)

الشاعر هنا يخبرنا عن صفة للبدو ملازمة لهم مرتبطة بهويتهم وهي ارتحالهم الدائم في فجاج الأرض ، فلا مكان يحصرهم ولا أرض تحتويهم فكل أرض أرضهم يتسربون كالماء فيها نلمح ذلك الشبه بينهم والماء من قول الشاعر **سالوا** فهم الأحرار تجد لهم أثرا في كل صحراء وقفر ، ثم أن الشاعر شبههم بالأهلّة وهنا أيضا نلمح مدحا لهم فالعرب تشبه بالقمر للدلالة على السمو والرفعة والشرف والوضاءة والنفع .

وفي قوله **منذ دهرين** يشير إلى أن الترحال قديم فيهم ملازم لهم ، وقد قوّى هذا المعنى بقوله**: السرى يطارد ظلّه** وعندما قال **: حملوا من سلالة البرق معنى** أشار إلى صلتهم بالبرق كأنهم من سلالته لهم من صفاته ؛ سرعتهم واختراقهم للحواجز فهم الأحرار الذين يومضون كالبرق الخاطف .

ويمكننا أن نجد في قوله **: بينهم والرمال جناس** ذات المعنى الذي في وصفه لهم أنهم من سلالة البرق؛ فالرمال أيضا حرة تتسرب إلى كل مكان وتخترق الحواجز .

البدو كما يقول اوبنهايم يفخرون بحريتهم ،ويملكون شعوراً جامحاً باستقلاليتهم .ولا يوجد ما يعلو في نظرهم على حياة الصحراء (26)

المبحث الثالث :مرجعيات القيم الأخلاقية في القصيدة

1-المرجعية الإسلامية :

تظهر مرجعية الشاعر الإسلامية في القصيدة من خلال استخدمه لكلمات وإيحاءات تشير إلى خلفيته الثقافية الإسلامية .من ذلك قوله : **يدارون شيئا من حرام جمر الضلوع أحلّه** فالحلال والحرام لفظان محملان بالدلالات الإسلامية .

وهنا يشير لخلق العفة المتأصل فيهم، ومعرفتهم بالحلال والحرام قد عضدت هذا المعنى في نفوسهم، فنلحظ ذلك في مجاذبتهم لها بين الحلال والحرام والمداراة والإظهار، وكل ذلك في دائرة البوح **باسم (وضحى)!!**

وفي قوله : **نارهم تستعيذ من شر ليلٍ**، نرى بوضوح أثر المرجعية الإسلامية في الجملة الشعرية.

فالمسلم مأمور بالاستعاذة من كل شرٍّ بالله، وهؤلاء البدو يرون أن ليلاً لا يبشر بقدوم ضيفٍ يستحق الاستعاذة منه!

ولأنه ذكر الاستعاذة ذكر بعدها الوسوسة، والوسوسة تحمل ظلالاً من الشرّ في المعجم الإسلامي خلافاً للوشوشة، التي كان يمكن للشاعر أن يختارها بدلاً عن الوسوسة.

ويقول : **فسقهم يتوضأ**، ونلمح هنا أيضا صورة مبتكرة لفسق يتوضأ، والفسق مصطلح إسلامي

أصل الفسق: الخروج من الشيء على وجه الفساد، ومنه قوله تعالى: { فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} (27)، وسمى الرجل فاسقا لانسلاخه من الخير.(28)

ويقول متعجباً **يا لهذي الطهارة المنحلّة**، ونرى المعنى الإسلامي لكلمة الطهارة في قوله تعالى { إِنَّهُمْ أناس يَتَطَهَّرُونَ}(29) : أي يتنزهون عن الأنجاس.

2-المرجعية الشعبية :

نعني بالمرجعية الشعبية الكلمات والصور والأشكال التي ترمز لحياة البدو فتبدو صورتهم واضحة من خلال تعبير الشاعر .

من الصور الدالة على حياة البدوي العربي كأبرز ما يكون صورة قافلة يحدوها راعٍ خبير بالصحراء، يقول: **منذ دهرين.. والقوافل حبلى باسمهم ...والسرى يطارد ظلّه**، والسرى لا يكون إلا ليلاً، وهو فنٌ يجيده البدو فلا يضلون في مهامه الصحراء.

ويقول: **كلما- عن مداره – تاه نجمٌ جاءَ يرجوا خطاهم أن تدلّه!!**، النجوم زينة السماء لا تبدو في أبهى صورها إلّا في صحراء لا معالم فيها، وهي التي يهتدى بها، لكنّ الشاعر جعل خطى البدو هادية للنجوم!

واسم (وضحى) شائع في البادية العربية، يقول الشاعر: **ماترى يصنعون لو أنّ (وضحى) منحتهم -خلف البراقع- ظلّه**، والبرقع من لّباس نساء البادية.

ويقول: **كلّما احمرّ في القبيلة خطبٌ أيقظ الموتُ في العمائم ظلّه**، فالبدو يعيشون في مجموعات تنتسب إلى جد واحد، تسمّى قبائل والقبيلة من النّاس: بنو أب واحد(30)

ويقول شاعرنا: **يسهرون الخيام علّ غريباً يطرق الحيّ آخر الليل** والخيام مرتبطة بالبداوة ارتباطاً وثيقاً، فصارت دالّةً على بيئتهم فهي دورهم الأثيرة، تلائم حياة الترحال الدائم والبحث المستمر عن مقوماتٍ للحياة في الصحراء، فصارت ملاذاً لهم ورمزاً من رموزهم، تقول ميسون بنت بحدل الكلبية زوجة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه :

لبيت تخفق الأرواحُ فيهِ أحبُّ إليّ من قصرٍ منيفِ(31)

وذكر الشاعر رمزا آخر من رموز الكرم في البادية، وهي (الدلّة) إناء القهوة و التي تشكّل ملمحاً أساسياً من ملامح حياة البدو المعاصرين في الخليج العربي.

وارتبط الهودج بحياة البدو أيضا، والهودج محمل له قبّة تركب فيه النساء(32)،وورد في أشعار العرب، يقول العرجي:

عوجي علينا ربّة الهودجِ أنك إن لا تفعلي تحرجي(33)

والغضا من نباتات الصحراء التي وردت في أشعار العرب كثيراً، قال يقول مالك بن الريب:

ألّا ليت شعري هل أبيتن ليلةً بوادِ الغضا أزجي القلاص النواجيا(34)

وقد ذكرها الشاعر في قوله: **وعلى نكهة الغضا ذاب بوحاً شاعر**، فنار الغضا معروفة بأنها مضيئة لا تنطفي.

والربابة آلة موسيقية بدوية اللّحن والهوى، لايزال البدو مولعين بها.

3-المرجعية الفلسفية:

يتميز شعر محمد عبد الباري بطابع فلسفي مميز، كثيراً ما نجد عنده قصائد تناقش قضايا فلسفية، وهذا ليس بمستغرب فبين الشعر والفلسفة نسبٌ وقربى، كلاهما يحاول الإجابة عن أسئلة وجودية تعين الإنسان على فهم الحياة وتقبلها.

يقول شاعرنا: **ولدوا في طفولة الأرض ..قلّة.. ثم سالوا كما تسيل الأهلّة،** ربط الشاعر بين البدو وطفولة الأرض ،

والطفولة بداية النشأة فكأنّه يقول أن البداوة أصلٌ في الإنسانية، وهذا معنى تطرق له قديما ابن خلدون في مقدمته يقول: (...فالبدو أصل للمدن والحضر)(35)

وابن خلدون وصل إلى هذه النتيجة عبر أدلة منطقية، فهو يرى أن البدوي مقتصرٌ على الضرورات في أحواله،والحضري يعتني بالترف والكمال، ولأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه فالبدو أصل للمدن والحضر، وسابق عليهما.

في هذا الجزء من القصيدة يتحدث الشاعر عن البدو ويصفهم فيقول أنهم (قلّة) ويبدو أنه لم يقصد إلى وصفهم بقلة العدد اعتباطا ؛وإنما قصد إلى معنى نلمحه إذا نظرنا لكلمة قلة في سياق الكلام ؛مرتبطة بطفولة الأرض فتحمل دلالة(النفيس الغالي) ، فقد ربط قلتهم بطفولة الأرض أي نشأتها إذن هو يصفهم بالأصالة والتجذر بالأرض أما قلتهم فتعني في سياق أصالتهم كرم معدنهم ونفاسة أصلهم. ويحضرني هنا قول السموأل بن عادياء الشاعر الجاهلي :

تُعيّرُنا أنّا قليلٌ عديدُنا فقلتُ لها إنَ الكرامَ قليل

و عبّر الشاعر في قوله: **بينهم والرمال جناس أغفلته البلاغة المختلة** ، عن ارتباطهم بالأرض بطريقة مختلفة وجديدة تماما، وهم المرتحلون دائماً لا تحدّهم أرض ولا تظلّهم سماء، وفي هذا مفارقة عجيبة فكأنهم باتخاذهم الرحلة عنواناً يخبرونا بأن كل الأرض دارٌ لهم ، هم الأحرار
يتنقلون كما الرياح ويهطلون كما المطر.
والشاعر حين يقول: **هاهم الآن يرجعون حكايا .. فضحت.. سيرة الحكايا المملّة،** يؤكد معنى الحرية في حياة البدو وحبّهم الطاغي لها، فحتّى حكاياهم لا تخضع للرتابة مثلهم تماماً لا يحتويهم مكان ولا تحيطهم جدران، حكاياهم تضجُّ بالعنفوان والحياة.

ويقول: **من نقيضين صاخبين استفاقوا شوك إحساسهم يعانق فلّه،** يتأمّل شاعرنا في حياة البدو فيرى فيها تناقضاً صاخباً، الغنى والفقر، والخفاء والتجلّي، والظمأ والماء، فهم الأغنياء الفقراء أغنياء بشموخهم وعزّتهم، لكن الجدب يحيط بهم فهم الفقراء، متجلّين بسجاياهم لكن لا أحد يعبأ بهم، فهم الأخفياء، فكأن الشاعر يشير إلى أن كل هذه التناقضات هي التي شكّلت هوية البدو، ففي إحساسهم الشوك والفلّ، في طبعهم الرِّقة والقساوة، فالقضية الفلسفية التي يشير إليها هنا أنّ كل نقيض يظهر الآخر، وبدونه يفقد معناه.

يقول الشاعر: **من جهالاتهم تناسل حدسٌ بعضه -إن أضاء- يفضح كلّه،** الشاعر هنا يتحدث عن خبرات البدو المعرفية التي تناسلت من جهلهم، كأنه يناقش قضية نشأة العلوم، وأنها تقوم أصلاً على الحدس، كما ناقش أصل الحضارة في بداية هذا المبحث، ويختم الشاعر القصيدة بأن البدو أنفسهم لغزٌ كبير، وسيظلّون كذلك.

الخاتمة

هذا البحث قراءة تحليلية لقصيدة غنية بالإيحاءات والصور لشاعر معاصر له مكانته في الساحة الشعرية العربية، وقد اخترت من قصائده قصيدة البدو، لتميزها. وفي ما يلي أُجمل ما توصلت إليه من نتائج:

1- أعطت القصيدة صورة مختلفة للبدوي والبادية، فتميزت عن غيرها من القصائد التي صوّرت حياة البادية.

2- تناول الشاعر الأخلاق في القصيدة من منظور جمالي وفلسفي.

3- نلمح في صياغة الشاعر للقصيدة الأسلوب الإيحائي، البعيد عن المباشر فهو يلمح كلماته ما يريد من أفكار ومعانٍ دون أن يصرح بها.

4- القصيدة محتشدة بالعاطفة، ونرى من خلالها إعجاب الشاعر بالبدو وإيمانه بتميزهم وأصالتهم.

5- روّج الشاعر لأخلاق البدو متخذاً مستويات متعددة للتعبير.

هوامش البحث

1- انظر ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ،لسان العرب،دار صادر بيروت،ط3 ،1994 م، جزء12ص224

2- منصة قيمة value.sa

3- انظر لسان العرب ،دار صادر بيروت،ط3 ،1994م، ج10 ،ص89

4- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي إحياء علوم الدين،دار المعرفة بيروت،ج3،ص54

5- ول ديورانت ، قصة الحضارة ،دار الجيل بيروت ،لبنان ، 2002 م،ج45 ص122

6- حسن مصطفى عبد المعطي ،هدى محمد قناوي ،علم نفس النمو، دار قباء،ج2،ص372

7- ماكس أوبنهايم ،البدو، ترجمة محمود كبير تحقيق ماجد شبّر ،الفرات للنشر والتوزيع بيروت لبنان، الطبعة العربية الثانية، 2007م ،ج1، ص 6

8- محمد عبد الباري، ديوان مرثية النار الأولى، منشورات الموسوعة العالمية للأدب العربي ، توزيع منتدى المعارف ،لبنان رأس بيروت ،ص54

9- انظر لسان العرب ،مادة لظى،ج15 ،ص248

10- سورة التوبة آية 35

11- أبو عبد الله محمد ابن أحمد القرطبي ،الجامع لأحكام القرآن،دار الكتب المصرية-القاهرة،1964م،ج8، ص129

12- انظر لسان العرب، مادة شمس،ج6،ص113

13- ورد في تاج العروس أن العرب كانوا إذا سوّدوا رجلاً عمّموه فيقال له: المُعمّم.
انظر محمد مرتضى الزبيدي ،تاج العروس من جواهر القاموس، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، 2001م،ج33 ، ص148

14- ديوان مرثية النار الأولى، ص55

15- ديوان مرثية النار الأولى، ص56

16- عروة بن الورد أمير الصعاليك، دراسة وشرح وتحقيق أسماء أبوبكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1998م، ص48

17- عنترة بن شداد، ديوان عنترة تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، رسالة ماجستير من كلية الآداب جامعة القاهرة،1964م ،المكتب الإسلامي، ص86

18- انظر تاج العروس، ج36، ص549

19- قيس بن الخطيم ،ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق ناصر الدين الأسد،دار صادر-بيروت،1967م، ص41

20- ديوان مرثية النار الأولى،ص59

21- ديوان مرثية النار الأولى، ص55

22- همّام بن غالب الفرزدق، ديوان الفرزدق، شرح وضبط علي فاعور، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان،ط1،1987م،ص512

23- ديوان مرثية النّار الأولى،ص57

24- طرفة بن العبد بن سفيان الوائلي، ديوان طرفة بن العبد، ت مهدي محمد ناصر الدين،دار الكتب العلمية ،ط3، 2002م، ص26

25- ديوان مرثية النّار الأولى،ص53

26- انظر ماكس أوبنهايم ،البدو، ص81

27- . سورة الكهف، الآية 50

28- محمود عبد الرحمن عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية ، دار الفضيلة، المجلد 3 ،الصفحة 43

29- سورة النمل، الآية 56

30- انظر لسان العرب،ج11،ص541

31- محمد المعروف بدياب الإتليدي، ت محمد أحمد عبد العزيز سالم، نوادر الخلفاء "إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس"، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط 1، 2004م، ص34

32- انظر لسان العرب، ج2، ص389

33- العرجي، ديوان العرجي، ت سجيع جميل الجبيلي، دار صادر-بيروت، ط1، 1998م، ص60

34- مالك بن الريب، ديوان مالك بن الريب حياته وشعره ،ت نوري حمودي القيس، مستل من مجلة معهد المخطوطات العربية، مج 15،ج1،ص88

35- عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر،دار الفكر بيروت،ط1، 1991م، ج1،ص152

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. حسن مصطفى عبد المعطي ،هدى محمد قناوي ،علم نفس النمو، دار قباء.
3. عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر بيروت،ط1، 1991م.
4. العرجي، ديوان العرجي، ت سجيع جميل الجبيلي، دار صادر-بيروت، ط1، 1998م.
5. عروة بن الورد أمير الصعاليك، دراسة وشرح وتحقيق أسماء أبوبكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1998م.
6. عنترة بن شداد، ديوان عنترة تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، رسالة ماجستير من كلية الآداب جامعة القاهرة،1964م ،المكتب الإسلامي.
7. طرفة بن العبد بن سفيان الوائلي، ديوان طرفة بن العبد، ت مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية ،ط3، 2002م.
8. قيس بن الخطيم ،ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق ناصر الدين الأسد، دار صادر-بيروت،1967م.
9. مالك بن الريب، ديوان مالك بن الريب حياته وشعره ،ت نوري حمودي القيس، مستل من مجلة معهد المخطوطات العربية، مج 15.
10. محمد المعروف بدياب الإتليدي، ت محمد أحمد عبد العزيز سالم، نوادر الخلفاء "إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس"، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط 1، 2004م.
11. أبو عبد الله محمد ابن أحمد القرطبي ،الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية-القاهرة،1964م.
12. محمد عبد الباري، ديوان مرثية النار الأولى، منشورات الموسوعة العالمية للأدب العربي ، توزيع منتدى المعارف ،لبنان رأس بيروت.
13. محمد مرتضى الزبيدي ،تاج العروس من جواهر القاموس، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، 2001م.
14. محمود عبد الرحمن عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية ، دار الفضيلة.
15. همّام بن غالب الفرزدق، ديوان الفرزدق، شرح وضبط علي فاعور، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان،ط1، 1987م.
16. ول ديورانت ، قصة الحضارة ،دار الجيل بيروت ،لبنان ، 2002 م.